«جوميه» ونجيب محفوظ

بقلم غالي شكري

سئل الاستاذ نجيب محفوظ : من هو الناقد ؟ فاجاب : « ان يكون عقل فيلسوف ، وضمير قاض ، وقلب انسان . فينبغي اولا ان يكون عالما متبحرا في الشكل الادبي الذي ينقده بصفة خاصة ، وفي الادب عامة بصفة عامة ، الى ثقافة انسانية شاملة . وعليه ثانيا ان يتحرى العدل والنزاهة والامانة ، في تفسيره وحكمه وتقويمه . وان يحاسب نفسه على ذلك حساب القاضي الامين ، باعتبار ان احكامه موجهة الى عمل انساني جدير بالاحترام ، والى عقول شباب يجب ان توجه التوجيه الصحيح السليم . وعليه ثالثا ان يعالج موضوعه بقلب صاف ، ونفس متطهرة من كل ميل او زيغ او احساس غير أبيض .. ليصدر احكاما صادقة ، لا يراعى فيها الا وجه الحق وحده » .

وهذا الشهر .. صدرت الدراسة التي كتبها الراهب الفرنسي الاب جاك جوميه ، ونقلها الى العربية الدكتور نظمي لوقا .. وقد عرض فيها الكاتب لثلاثية نجيب محفوظ « بين القصرين ، قصر الشوق ، السكرية »

فالى اي مدى ينطبق تعريف نجيب للناقد ، على هذه الدراسة الجديدة ؟

احنوا رؤوسكم

ويحق ، أولا ، ان نحني رؤوسنا لهذا الكاتب الاجنبي ، الذي اهتم باحدى روائع ادبنا المعاصر .. فلم يقصر اهتمامه على مقال سريع ، يجامل به الادب العربي . بل اقبل على العمل الكبير ، في جهد وحب ومثابرة ، انتجت دراسة صادقة مخلصة ، تقع في مائة صفحة كاملة . وهو بذلك اعطى نقادنا درسا . فالفنان الذي يقضي سبع سنوات في البحث والخلق والتامل والابداع .. لا شك انه يستحق اكثر من ساعة يقضيها الناقد في تلخيص العمل ـ او تشويهه ان شئت الدقة ـ وازجاء كلمة مدح او هجاء ... حسبما تمليه ظروف العلاقة الشخصية القائمة بينهما .

هذا الراهب الاجنبي ، ختم دراسته الطويلة بقوله « واننا اذ نراجع هذه السطور ، نجد ان رسالتنا هذه اصبح تشير الى روعة ذلك العمل الادبي ، وليست ذراعا تحيط به او تطوقه . فهو عمل جميل متعدد الجوانب ، اكبر قدرا واعمق غورا من ان تحيط به هذه العجالة »

ولنا ان نتخيل مدى القداسة التي تشع من عقول هؤلاء الناس في فهمهم للنقد .. ولنا ان ننحني مرة اخرى .

القيمة الانسانية

بدأ الاب جوميه دراسته ، بلمحة عن حياة الاستاذ نجيب محفوظ واعماله الادبية ، ثم قدم عرضا فكريا ـ لا تلخيصا ـ للثلاثية ، حتى يستطيع ان يمهد للمنهج الذي اختاره سبيلا للنفاذ الى قلب القارىء وعقله معا .

فهو يقسم الشخوص تقسيما تطوريا زمنيا .. يتتبع الخطوط السيكلوجية التي رسم بها الفنان لوحته .. ويفريه التلاحم الشبكي بين الاحداث ، لتبيين ظروفها ودوافعها .. الى ان يصل الى حل « العقدة » التاريخية ، او النفسية ، او الاجتماعية .

وقد كان اشد الشخوص انجذابا الى منهج جوميه ... احمد عبد الجواد .. الاب القاسي المستبد ، الذي يتنازع نفسه التناقض، فهو ابن حظ في الخارج ، يسهر الى ما بعد منتصف الليل ، حتى اذا دخل البيت، تغيرت اوضاع وجهه .. عروقه تبرز ، وعيناه تحمران ، وشعيرات شنبه تنتصب ... ويبدأ نقيضه الاخر في تقلد مهام منصبه .. فلا يضيره ان زوجته « أمينة » لا تعرف اسم الحارة التي يقع بها دكان عمله ، ولا يسمح لها بزيارة الحسين الذي يبعد عنها خطوات .

ولكن الايام تجري .. والاصوات تتلاحق .. واحد ابنائه « فهمي » يموت برصاص الانجليز في ثورة ١٩١٩ .. والرجل وطني ، وحبه للسيطرة يفوق احساسه بالوطنية .. ويتولاه نقيضان جديدان : فهمي لم يستأذنه في اشتراكه بالمظاهرات ، فهو ابن عاق .. وفهمي مات ، والحزن يأكل قلبه ، والمأساة تذيب عمره .

وربما كان الكاتب الاجنبي صادقا في تقديمه احمد عبد الجواد على بقية الشخوص ، لانه يحس في اعماقه بهذه الشخصية ، اذ تمثل عنده « الشرق » الجامد ، الذي يتدين بعنف ، وينحل ـ في الداخل ـ اشد عنفا . ولولا هذه الحساسية « الغربية » ، لكانت « أمينة » هي الشخصية الاولى الجديرة بالملاحظة الدقيقة والدراسة المتأنية . اذ كانت باعتراف جوميه ، المشبك الذي تتعلق به الاسرة كلها .. ولذا كان ضعفها الخنوع لاستبداد زوجها ، وجهلها المثير بكل ما حولها ، واصرارها على امساك الزمام الروحي للعائلة .. كانت كل هذه مؤهلات ، تمنح امينة الاولوية في التقديم السيكلوجي لهذه الدراسة .

ولكن الكاتب ـ كما قلت ـ لديه احساس بالغربية ، ان جاز هذا التعبير ، فهو يبرز النقيض المستبد في شخصية احمد عبد الجواد في وضوح « حين خطر لزوجته في العام الاول من معاشرته ، ان تعلن نوعا من الاعتراض المؤدب على سهره المتواصل ، فما كان منه الا ان امسك باذنها وقال لها بصوته الجهوري في لهجة حازمة :

ـ أنا الرجل . الآمر الناهي. لا اقبل على سلوكي اية ملاحظة ، وما عليك الا الطاعة ، فحاذري ان تدفعيني الى تاديبك .

فتعلمت من هذا الدرس ، وغيره مما لحق به انها تطيق كل شيء ـ حتى معاشرة العفاريت ـ الا ان يحمر له عين الغضب ، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط . وقد اطاعت ، وتفانت في الطاعة ، حتى كرهت ان تلومه على سهره ولو في سرها . ووقر في نفسها ان الرجولة الحقة ، والاستبداد والسهر الى ما بعد منتصف الليل ، صفات متلازمة لجوهر واحد . ثم انقلبت مع الايام تباهي بما يصدر عنه سواء ما يسرها ام ما يحزنها ، وظلت على جميع الاحوال الزوجة المحبة المطيعة المستسلمة » .

يدوس جوميه بشكل ملحوظ على هذه السطور .. ويهمل ـ تبعا لذلك ـ ابراز الجانب الآخر من حياة الرجل ، رغم ان المرح والسهر والعوالم ، من الصفات المصرية الاصيلة . وكان لظلالها النفسية ، ما يدل الباحث، على نواح كثيرة ، تضيء له ما غمض على وجدانه الغريب عن الوجدان المصري .

ويستعرض الكاتب بعد ذلك ، ابنتي احمد عبد الجواد ـ عائشة

وخديجة ـ فالاولى جميلة يقبل عليها الخطاب والاخرى سمينة يبهت بختها اول الامر ... ثم تزوج الاثنان من سفيقين في السكرية . وعائشة ترث عن والدها الجانب اللاهى المرح ، بينما ترث خديجة ، الجانب المستبد .

اما اخوها ياسين ، فهو صورة من ابيه ، تجردت من الثوب الخارجي.. اذ نراه يطلق ويتزوج في اي وقت .. مثله العليا في الحياة هى الشهوة والكأس . وعلى النقيض ، نلتقى بشقيقهم الاصغر « كمال » الذي سنغرق « قصر الشوق » غرامه الاول باخت صديقه « حسين شداد » . ويصرع الحاجز الطبقي حبه الاول ، وتنهار مثله القديمة ، ويستقبل الرياح القادمة من أوروبا . فيقرأ داروين وماركس .. ويشغف بالعلم ..ويكتب في الصحف .. ويعمل مدرسا للغة الانجليزية ... وتشب الى مخيلته في أحيان كثيرة .. الصورة الجميلة لفتاة احلامه .. فتنهار اعصابه ... وتمضي حياته بطيئة ثقيلة ... حتى اذا اقبل عام ١٩٤٢ ، كان تمشي في جنازة حرم المفتش العام للغة الانجليزية ، مجاملة لرئيسه الاكبر .. ولا يعلم الا بعد سنه من ذلك التاريخ ان التي شيع جنازتها كانت عابده ـ حبيبته السابقة ـ وقد تزوجت ذلك المفتش بعد طلاقها من زوجها الاول !! .

ويكب كمال على القراءة ، وتظل عطفه على الفلسفة القديمة فيزاوله سلبية من حنايا نفسه . وتتوقف مقالاته عن النشر ، بعد ان لاحظ الجيل الجديد ، وهو يصعد حربا بمبادئه .

ويبدأ الجيل الثالث في الاسرة بابن ياسين « مضان » ، وابني خديجة « عبد المنعم واحمد » . اما رمضان فيلتحق بمواكب الساسة والكبراء ، فيحظى بأحد مناصب الدولة الهامة . واما عبد المنعم ، فيصبح عضوا في جماعة الاخوان المسلمين، واحمد من الشيوعيين . وتنتهي الرواية باعتقال السلطات للاثنين .

الواقعية ونجيب محفوظ

يصف جاك جوميه ، الاستاذ نجيب محفوظ ، بقوله « ان الاهتمام بالواقعية موجود ايضا عند سواه ، بيد ان الجديد حقا هو استخدام الواقعية ومناهجها على نطاق واسع هذا الاتساع ، وبهذه الدرجة من الاستاذية ، في مجال الحياة المصرية »

والموضوعية عند الراهب الفرنسي ، هي الا يقف الكاتب موقفا معينا ، وان يتجرد عن كل ما يحيط ارض العمل الفني ، بالمذاهب والميول والاتجاهات .. والا يكون قاضيا على الناس او الاحداث .. وانما حسبه عدسة نظيفة ، تشاهد وتسجل ، في أمانة وصدق .

وكانت النتيجة الواضحة لهذا الفهم ، ان يتساءل في دهشة ، حين انتهى من عرضه السيكلوجي لحياة كمال « لقد جرحت الحياة كبرياءه في مطلع شبابه ، فانطوى على نفسه . ومن الغريب ان كلمة الكرامة لم ترد مرة واحدة في الثلاثية كلها ، عند ذكر كمال ، على كثرة ما استخدمها المؤلف عند ذكر غيره من الشخصيات ، ولاسيما أبيه . مع ان هذا الاحساس بالكرامة ، لعله هو لباب عقدة كمال كلها » .

فقد فات الكاتب ، ان الواقعية لا تلزم الفنان ، بالتأكيد الفوتوغرافي للانفعالات المتباينة . كفى ان نحس هذه الانفعالات ، دون ان تصحبها « تقريرية مادية » اذا اوضح هذا التعبير ، ما نقصده بالاحداث events التي تؤكد الانعكاس النفسي للحدث action

وبهذا الفهم ايضا ، كان الكاتب سعيدا ، بأن يصف نجيب محفوظ ، ما تكنه خديجة لاختها عائشة من حقد ، « على انه لم يكن لها محيد عن كتمان عواطفها ، لان الكتمان في هذه الاسرة ، عادة متأصلة ، وضرورة اخلاقيه ، طبعت عليه في ظل الارهاب الابوي ، وبين الحنق والامتعاض من ناحية ، والكتمان والتظاهر من ناحية اخرى ، لافت من حياتها عذابا متصلا وجهدا مطردا » .

في حين ان هذه الكلمات بالذات ، تبدو في ثوبها التفريري ، متنافرة مع الاصالة الفنية التي يتميز بها هذا العمل الكبير .

ويزداد جوميه ، ايضاحا لنا ، حين يعرف نجيب بأنه « روائي واقعي، كل جهده منصرف الى رسم الواقع رسما امينا في قالب فني . ولذا نجد بين شخصياته نماذج بشرية شديدة التباين . فهنالك أحمد عبد الجواد وكمال .

وهناك الحفيدان الشقيقان عبد المنعم واحمد . هناك المؤمن والملحد . ولكل ملامحه وكيانه الخاص.ولذا يحق لنا انتقول من اولنظرة ان الجو العام الذي يستخلص من مجموع الروابة هو جو الحياة نفسها »

فالحياة ـ عند جوميه ـ حافلة بالتناقض . وواجب الفنان الواقعي ان يكون امينا على الحياة .

ولا يتركنا ـ للمرة الاخيرة ـ حيارى ، فيقول ان الثلاثية ، ليست رواية « هادفة » مثل رواية الارض لعبد الرحمن الشرقاوي مثلا.

ويبدو ان المنهج النفسي الذي تخيره جوميه ، في تتبع الخط الرئيسي الذي ينتظم الثلاثية ، لم يتح له خاتمة جيدة ، للتدليل على صحة تعريفه للواقعية . اذ هو يتراجع قليلا عن الرأي السابق قائلا « ومع هذا ، فالثلاثية تسيطر عليها فكرة واحدة هي فكرة التطور شبيه الحتمي ، الذي يقتلع كثيرا من التقاليد التي كانت تبدو راسية . ويقوض صروحا من العرف كان يظن بها الرسوخ والشموخ » . وهو في تعبيره « شبه الحتمي » انما يعتذر في لباقة ، انه لم يجد دليلا واحدا على « الحيدة الموضوعية » التي انهم بها نجيب محفوظ .. قائلا ، ان الحياد نفسه موقف ... رغم ان نجيبا لم يعرف هذا الموقف الحيادي على طول الثلاثية .

ويقول جوميه ، وهو ينسحب بانتظام « الواقع انه من المستحيل ، ان تتحاشى اي مؤلف ، تبين اتجاهاته صراحة اوضحنا في عمل من اعماله »...

ثم يصل الى مرتبة اليقين ، ويتفق معنا قائلا « ولا شك ان مطالعة الثلاثية ، تكشف عن ميل المؤلف الى آراء كمال ، وابن شقيقته أحمد »

فما هي هذه الآراء ؟ يقول « بين سطور الثلاثية كلها تلمح تقززا من الماضي ورغبة قوية في التخلص منه . فالتحرر من الاحتلال الاستعماري يجب ان تصحبه انواع اخرى من التحرر . والعبرة التي يستخلصها كمال من حياته المترددة ، ومن القاء القبض على ابني اخته ، أشبه شيء بالاعتراف الصريح والتوصية بالاتجاه الجديد . وذلك حيث يقول انه لا قيمة للحياة ما لم يصحبها عمل ايجابي. وهذا القول الصريح يدمغ كل حياة انانية يحياها من يعيشون لانفسهم فحسب . ويدمغ حياة العزوبة التي يعيشها كمال ، قانعا بثقافته وافكاره الخاصة عن كل عمل او اشتباك او مسئولية . ولا يعفيه من الملام انه عاطف على أنشط حركة سياسية وطنية عرفتها الاحزاب المصرية وقتئذ »

وليس شيئا صعبا ، ان نتبين المكان الذي يقفه الكاتب من عبد المنعم واحمد . فالاول من الاخوان المسلمين .. والاتجاه الاجتماعي او السياسي الذي تتجهه هذه الجماعة ، يختلف تماما ، مع الاتجاه الواضح الذي يؤيده المؤلف . بينما نرى أحمد ، امتدادا حيا اكثر ازدهارا لآراء كمال

التقدمية .

التكامل الانساني

وثلاثية نجيب محفوظ ، في تسجيلها التطور الزمني ، لجيل احمد عبد الجواد ، لا تقتصر على هذا الدور فحسب .. وانما تصور لنا الاطار الايديولوجي الذي تتطور داخله ، اخلاقيات هذه الاسرة البورجوازية الصغيرة ، ومدى اسهام الظروف المحيطة في هذه التطورات .

ويقول جولدمان « في اكثر من موضع ، كان يلح في ابراز التوازي بين مستوى التطور الخلقي والعائلي ، ومستوى التطور السياسي في مصر. فكما كان الابناء يتحللون شيئا فشيئا من سيطرة الآباء كانت مصر ، كذلك تتحلل من السيطرة البريطانية »

وقد كان القالب الهندسي المتكامل ، فرصة رائعة ، امام نجيب محفوظ، ليعرض لنا المفاهيم البورجوازية في مختلف شئون الحياة والمجتمع .. مع تطور هذه المفاهيم عبر الزمن . كما عرض في وضوح ، لصراع الافكار المتباينة ، من خلال الاوضاع المادية النابعة منها ، حيث تقف اسرة احمد عبد الجواد ، التي تنتمي الى الطبقة المتوسطة الصغيرة ، في مهب الريح، امام مأساة كمال ، الذي يقف الحاجز الطبقي بينه وبين عايده شقيقة صديقه حسين ، اذ تنتمي اسرته ـ آل شداد ـ الى هذه الطبقة الوصولية المتميعه ، في نموها التسلقي على احذية البورجوازية الكبيرة . وتقف نفس الاسرة ـ في موقف مغاير ـ حائلا بين احمد وحبيبته سوسن ، اذ هي ابنة عامل مطبعة !!

هذه التمزقات الاصيلة في صميم الطبقة المتوسطة الصغيرة في مصر ، هي المحور الدرامي لمأساة الثلاثية .

فهذه الهندسة الداخلية الرائعة ، التي اشار اليها الدكتور نظمي لوقا في تذييله ، هي الاثر الايجابي ، للتفاعل العضوي بين المضمون الانساني للرواية ، والبناء الفني لها .

ولا ننسى ، ان التمزقات النفسية والاجتماعية ، لشخوص نجيب محفوظ ، لم تحدث نتيجة عفوية ، لمشرط ساذج . وانما جاءت نتيجة حتمية ، لمشرط خاص .

ورغم ان جولدمان قد احس بالارتباط الوثيق الذي يؤكده نجيب بين الاحداث المتفرقة ، الا انه ـ فيما يبدو ـ لا يؤمن بالاساس النظري لهذا المنهج . فهو لا يربط بين اللقطات المتباعدة ، بخيط واحد . وانما يجزيء الحدث ، ويفتت القطاع الواحد ، ليخرج باكثر من نتيجة متناقضة .

يقول مثلا « نجح الاستاذ نجيب محفوظ في تجلية ياسين لنا بالعين التي يراه اخوته واخواته . اما اذا رأيناه بعين غير تلك العين الراضية المغضية فلن نرى الا شخصا شهوانيا لا يرعوى عن شيء ، مسفا في البهيمية الى حد يبعث على التقزز . فهل ترى جنح المؤلف الى تصوير ذلك كله زلفي الى فئة من القراء ، تستطيب هذا اللون من الفعال والاوصاف ؟ ام ترى اراد ان يكمل صورة الاب ليرينا ما في ذلك الرجل من شهوة كيف تبدو لنا حين تسفر عن وجهها الذي لا تقنعه سجية الاحساس بالكرامة ، تلك السجية التي تحلى بها ، وتجرد منها ابنه ياسين ؟ »

هذا التساؤل المرتاب ، يوضح الى اي مدى ، استطاع ان يصل به منهج غير متكامل ، في فهم الترابط الموضوعي بين اجزاء الحدث الواحد.

فالتناقض الظاهري في شخصية احمد عبد الجواد ، ليس تناقضا . فاخلاصه للصلاة ، وقسوته ، وصحبة خلانه متى سجا الليل .. ليست جميعها متناقضات ، بقدر ما هي خطوط تفصيلية في لوحة واحدة .. صورة البورجوازي الصغير في حياته العريضة .

اما التناقض الجذري ، فيبدو في ساق الاسرة ككل .. فالجيل الذي يمثله احمد عبد الجواد هو احد طرفي النقيض الذي يمثله الابن الاصغر كمال .. ويحسم الفنان الامر ، بأن يواجه الجيل الثالث ، النقيضان ، وجها لوجه ، في شخص احمد الجيل الثالث النقيضين ، وجها لوجه ، في شخصي احمد وعبد المنعم . فبينما يتطرف الاول في تقدميته ، يوغل الثاني في رجعيته .

ولا يمنع التناقض الاساسي عادة ، نشوء بعض التناقضات الثانوية على الساق الرئيسية . فأحمد عبد الجواد رجل يؤمن بالوطنية ، ولكنه يستاء ان يشترك ابنه فهمي في المظاهرات دون استئذانه . وامينة ضعيفة جاهلة ، تعاني ازمة المرأة البورجوازية في مصر خلال الربع الاول من هذا القرن ، وهي في نفس الوقت ، المظلة التي تحمي الاسرة كلها امطار الاحداث . وكمال يتشبع بالاراء العلمية والثورية ، ولكنه يحجم عن التأثر الايجابي بها .. وهكذا . فالنقائض الثانوية العالقة بأغصان الشجرة ، ترتبط في النهاية ، بالتناقض الاصيل في الشجرة نفسها .

*

ويعلق الدكتور نظمي لوقا على « الشخصية » عند نجيب محفوظ بانها « نبات حقيقي جذوره ملطخة بالطين ، لانها نابعة منه ، وفي ساقه عصارة لزجة ، وعلى اوراقه آثار آفات وحشرات ، لانه حي ، يحمل كل خصائص الحياة ، ويخضع للضريبة التي يؤديها كل حي ، وهي الافتقار الى الكمال الذي تزهو به المخلوقات الذهنية التي لا تنبض بالحياة ».

والمخلوقات الذهنية وحدها .. هي التي لا تعرف التناقض ... والمخلوقات الحية وحدها هي التي تعرف هذه الطبيعة الانسانية العلمية.

والشخصية الحية ، هي مفتاح فن الرواية عند نجيب ، كما يقول نظمي .

ولو استطاع الاب جولدمان ، ان يربط بين مظاهر البورجوازية الصغيرة ، وتطور هذه المظاهر مع الاحداث ، لجاء بالنتيجة الاخيرة ، وهي ان التطور « حتمي فعلا » لا « شبه حتمي » .. وان نجيب محفوظ يؤمن بالرأي الاول . وعلى هذا الضوء كان اجدى له ان يعيد النظر في كل ما قاله الفنان من كلمات تستتر وراء الاضواء والظلال والالوان ، التي تملأ اللوحة الكبيرة . فالخيط التطوري للطبقة المتوسطة الصغيرة ـ مثلا ـ لم يكن معزولا عن بقية الخيوط التطورية الاخرى في صنعها للطبقات المختلفة، وانما كان الاندغام الموضوعي بين الظروف المحيطة ، يخلق ـ دائما ـ الجانب الاكثر تقدما .

ولم يقع جاك جولدمان في الخطأ الشائع عند نقادنا ، اذا ما تناولوا نجيب محفوظ بالدراسة . فهم ينعتونه بكاتب البورجوازية الصغيرة . ورغم ان التسمية تتجرد من اي ثوب علمي ، الا انها حقيقة ، ان يعبر كاتب ما عن طبقة معينة .وهذا التعبير ليس صورة جامدة ، وانما حركة حية من شانها ان توضح لنا كيف سلك هذا الكاتب في تعبيره عن هذه الطبقة .

فالبورجوازية الصغيرة ، مادة طيبة لاكثر من كاتب .. ونجد ان كلا منهم يختلف عن زميله في وجهة النظر التي يرى بها هذه الطبقة ، في نموها وانحلالها .. في تقدمها او انتكاسها .. في اشتباكاتها الحية مع الطبقات الاخرى ، وما ينتج عن هذا التفاعل من خطوات تاريخية .

فنجيب محفوظ ، يكتب عن الطبقة المتوسطة الصغيرة .. لانه عاشها بالفعل ، وعانى ظروفها ، واحس بها . وهذا لا ينسينا ، ان نجيبا عاش

ـ التتمة على الصفحة ٦٤ ـ

غوميه ونجيب محفوظ

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٤ ـ

ـ في نفس الوقت ـ اشياء اخرى كثيرة . عاش الفلسفات العلميةالحديثة، والنظريات الانسانية الجديدة .. وعانى ـ بكل ذرات دمه ـ قسوة الشك واليقين والتمثل . ثم هو بعد ذلك ، لا يرى في تعبيره عن الطبقة البورجوازية الصغيرة ، موقفا نظريا ، وانما هي الصدفة التي انشأته في أحضان هذه الطبقة .

يتحدد موقفه النظري ـ والتطبيقي ـ اذن ، من خلال تقصينا نحن ، للنتائج العلمية ، التي نفوز بها بعد هذه المعاناة .

فتولستوي ، كان ينتمي الى الطبقة الكبيرة ... وكان صامتا في تعبيره عنها .. ولكنا نرى هذا التعبير اتخذ زاوية معينة .. زاوية انسانية . فهو لم يعطف على طبقته ، بل اتخذ منها مادة رائعة للنفاذ الى صميم هدفه الانساني.

وكذلك الامر بالنسبة لتشيكوف ، وان اختلفت طبقته عن تولستوي ، وازدادت نظرته قربا من العلم ، والتطور ، والموقف الانساني .

بل ان الادب الانجليزي ، يمنحنا مثلا كبيرا في شكسبير ... فالقصور والملوك والامراء.. جميعها استغرقت كل اعماله . ولكنه كان انسانا . ففضح استارهم . ومزق الاقنعة المضللة عن حقيقتهم . واعطانا فكرة صادقة عن مخادع الجريمة التي تستلقي رؤوسهم القذرة على وسائدها.

فهل كان شكسبير كاتبا ملوكيا ؟ كلا .. وانما كان كاتبا انسانيا.

وهناك نقطة هامة .. وهي ان الفنان اذا القى بصره بعيدا عن طبقته جاء تعبيره زائفا مفتعلا . فالكاتب الذي نما في احضان الطبقة العاملة ، لن يستطيع ان يكون صادقا ، اذا عبر عن الطبقات الاخرى ، الا في الحدود المصلحية المتشابكة في صراعنا اليومي . والكاتب الذي ترعرع فياحضان الطبقة الكبيرة ، لن يستطيع ان يكون صادقا ، اذا اراد ان يعبر عن الطبقات الشعبية ، الا في نفس الحدود السابقة . وهي حدود ضيقة لا تتيح فرصة التأمل الواعي الدقيق . والكاتب اذا كان احد ابناء الطبقة الوسطى ، فهو لن يتحرى الصدق ، الا في دائرته الطبقية الخاصة . اذ ان المسافة الموضوعية التي تبعد به عن الطبقتين العليا والدنيا .. هي نفس المسافة التي تبعد به عن الصدق اذا اراد ان يعبر عن احديهما .

صدر حديثا

هكذا تشرق الشمس

فلسفة سياسية

بقلم
محفوظ ايوب

الثمن ١٥٠ ق.ل.

ولكن التقيد بطبقة معينة ـ كما قلت ـ لا يلزم الفنان بالتشيع لمثالياتها ومصالحها . بل هو يستطيع ان يكون اكثر تقدما وانسانية ، كلما وعى ـ في صدق ـ كافة الصراعات المختلفة التي تصنع طبقته .. وليس هذا الوعي الصادق الا نتيجة طبيعية للانحام الموضوعي الحار بكل الظروف المحيطة بهذه الطبقة .. وتفسيرها حسب منهج علمي.

واكرر ان جوميه ، لم يقع في خطأ نقادنا الشائع عن نجيب محفوظ . ويبدو انه لم يعثر على الصواب . وربما ان هذه الشائعة لم تصل الى اذنيه ، فاستراح الى توخي الدقة في رسم نجيب .. من الظاهر فقط .

فاذا بحثنا عن نجيب من الداخل . فماذا نرى ؟

اننا نجد عالما وعى كل مظاهر طبقته بعمق . وضع كلتا يديه على كافة نواميس التطور في البنيان الايديولوجي لهذه الطبقة . عرف كيف يثبت قدميه على عجلة القيادة .. الى امام .

فهو يفسر لنا الارتباط والتعلق الذي يحسه جميع الابناء نحو بيتهم، برقة الام وحنانها ، وكثرة غياب الوالد عن البيت ، والتواطؤ بين الاخوة والاخوات ، والكذب عند اللزوم (١)

فالخيط الذي يربط تماسك هذه الطبقة ، هو خيط واهم . والارتباط الذي نتوهمه بين افرادها ، هو زيف . فرقة الام ـ وهي رقة جاهلة كما يقول كمال ـ واستهتار الاب ، والتواطؤ والكذب .. لا يمكن لهذه الاعمدة الخائرة ان تقيم صرحا قويا متساندا .

والادوار العليا ، القائمة على الاساس الواهن، لا بد ان تؤول للانهيار. فامينة لا تستغني عن حماية الرجل « لقوته » ـ وان كان مصدر القوة هو الضعف ـ لطرد الجن والقضاء على الخوف منهم . واحمد عبد الجواد رجل شديد الاحساس بتماسك الاسرة.. هذا التماسك «الخيالي» الابله. والمثاليات النابعة من هذا الواقع المتداعي، هي مثاليات متداعية ايضا . فالكذب في عرض المسلمة حرام . ويوم قال كمال انه رأى مريم جارتهم تبتسم بمودة لجندي انجليزي ، زجرته الام على الفور زجرا شديدا قائلة بلهجة تنم عن الوعيد : ـ كمال !.. الكذب في مثل هذه الامور جريمة لا يغفرها الله .. راجع نفسك يا بني!

وحين زار البيت ، الشيخ متولي عبد الصمد ، القى على الاب درسا قاسيا ، ولامه أشد اللوم على حياته التي تجافى روح الاسلام وتعاليمه . فاحتج احمد عبد الجواد قائلا (بين القصرين ص ٣٨ ، ٣٩) :

ـ ما ارتضت نفسي يوما ان تعتدي على عرض او كرامة قط . والحمد لله على ذلك .

وكذلك الصدق واجب « حين يحلف احدهم بالقرآن » ، ولذا ترى الاب يعمد الى هذا الملاذ الاخير في حديثه مع ابنه فهمي يجبره على الطاعة والوفاء (بين القصرين ص ٣٧٥) .

والكرامة ـ في مفهوم البورجوازية الصغيرة ـ تصدر في اوسع حدودها عن واقع هذه الطبقة . ولا تفوت جوميه هذه الملاحظة « فالشعور بالكرامة عنصر رئيسي في سيكلوجية جميع شخوص نجيب محفوظ . فالاب حريص على حفظ المظاهر لصون كرامته ، ولذا يخفي عن أهله سهراته وصبواته . ويتحاشى ما يجرح سمعته او يفضحه ».

وعندما يعظه الشيخ بأن الفسق لعنه ، ولو يكن بفاجرة « كان ابوك رحمه الله مولعا بالنساء فتزوج عشرين مرة . فلماذا لا تنهج سبيله وتتنكب طريق المعاصي ؟ » يجيب في ضحكة عالية :

ـ أانت ولي من أولياء الله ام مأذون شرعي ؟ كان ابي شبه عقيم فاكثر

(١) جوميه ـ ص ٣٩

من التزوج . وبالرغم من انه لم ينجب سواي ، الا ان عقاره تبدد بيني وبين زوجات اربع مات عنهن ، الى ما ضاع على النفقات الشرعية في حياته. اما انا فأب لثلاثة ذكور وانثيين ، وما يجوز لي ان انزلق الى الاكثار من الزوجات فأبدد ما يسر الله علينا من رزق ، ولا ننس يا شيخ متولي ان غواني اليوم هن جواري الامس ، واللاتي احلهن الله بالبيع والشراء . والله من قبل ومن بعد غفور رحيم » .

وواضح ان احمد عبد الجواد يرفض الزواج باكثر من واحدة «حرصا على كرامته» . وحين يولع في قصر الشوق بالعوادة زنوبة ، ونراها يرفض الاستسلام له ما لم يتزوجها ، نمنعه « كرامته » من الزواج بامرأة اقل منه منزلة .

ويتساءل جوميبه في قلق : ما هو الدور الذي يسنده الاستاذ نجيب محفوظ الى الدين في حياة احمد عبد الجواد ؟ ما هي المكانة الحقيقية للاسلام في حياة ذلك الرجل الذي لا يخلف وقتا واحدا من أوقات الصلاة الخمس اليومية ، ويصحب اولاده في أبهة كاملة الى المسجد لصلاة الجمعة ، ولا نكاد نكف شفتاه في صحوه عن ذكر الله .

ويقول : ان احمد عبد الجواد ، كما رسمه المؤلف مؤمن بوحدانية الله، وبانه غفور رحيم . ولكن هذا الايمان بوانية الله، الذي يحنفه على كمال لتشيعه لمذهب داروين ، لا يرعوى عن الاستبداد بذلك الايمان ، ولا يرعوى عن مجونه وفصفه بسبب ذلك الايمان . بل هو يرى الاستبداد صفة ملازمة للرجولة . اما الشهوات الحسية فهي في نظره امور طبيعية كالرغبة في الطعام والشراب .

والقلق الذي احسه جوميبه في سؤاله ، ينجم عن اغفاله الترابط الموضوعي بين مظاهر النشاط البشري. ونحن اذا طالعنا وجهي عبد الجواد، طالعنا في نفس الوقت وجها واحدا لنجيب محفوظ ، يرى به هذه الطبقة.

وبنفس الوجه ، رأى نجيب ، الاختين خديجة وعائشة . فالاولى احرصهما على اركان العبادة ، من صوم وصلاة . ونجيب يقرن تلك التقوى بصفات خلقية كثيرة تنقضها . ولعل هذا ـ عند جوميبه ـ « من آثار النزعة اليسارية لدى المؤلف » فخديجة الصائمة المصلية تغار من اختها الصغرى لخطبتها قبلها ، وتتذمر لان الله لم يجزها على تقواها (بين القصرين ص ٢١٤) .

وظاهرة التفسخ ، التي عرض لها نجيب محفوظ ، وأشار اليها جوميبه، ولم يربطها ببقية المظاهر الاخرى .. هي الطلاق .

والطلاق ، هو احد الخيوط الواهية ، التي تضم البناء الروائي في الثلاثية ، داخل القالب الانساني للقصة . فأحمد عبد الجواد ، طلق زوجته الاولى .. وكان على استعداد ان يردها ثانية ، لولا انها اصرت على عدم العودة . وكان بصدد ان يطلق امينة ـ بعد ان طردها ـ لولا انها عادت اليه . وقد ورث عنه ياسين ، الامتداد المتطور لنفس الظاهرة . فهو يطلق ويتزوج في ضجة واباحية . ورضوان ـ ابن ياسين ـ هو ضحية اخرى من ضحايا الطلاق . وقد رأيناه يعاف الزواج وينصرف الى عقد الصلات الشخصية مع رجال السياسة والاحزاب ، ويستخدم نفوذه لترقية ابيه بغير حق . ينوقف جوميبه قائلا « مما يبرز لنا مرة اخرى عنصر التماسك في بناء تلك الاسرة البورجوازية الصغيرة » بينما نلحظ ان هذا التماسك قد بني على غير اساس صادق متين . وبالتالي يكون البناء عرضة للسقوط في اي وقت .

قيمة التفاعل الطبقي

واعود الى القيمة التفاعلية ، التي تضح عند نجيب محفوظ ، في كشفه التلاحم الشبكي بين الطبقات ، فأقول .. ان هذه القيمة ، تعاود دائما ، حين يصبح للفنان دور قيادي في حياة الناس .

فلا يفوت المؤلف « ان يغمز تلك الطبقة الغنية . فآل شداد بخلاء ينفقون على المظاهر عن سعة ، ويقترون على الخدم ، ولا يقدمون لضيوف حسين من اصحابه الا الماء البارد . ويأكلون شطائر من لحم الخنزير في رحلة الهرم ، مع انهم يحتفلون بشهر رمضان احتفالا باهرا »!

بل إن كمال ، يكتشف اخيرا ، ان عايدة تستخدمه لاثارة احد رفاقه ، وهو ابن مستشار ملكي واسع الثراء يتقدم لخطبتها .

وهكذا لا يلبث الكاتب البورجوازي الصغير (!!) ان يحيط بكل مظاهر الحياة من حوله ، فلا يتشبث بتقاليد طبقته ، وانما ينتزع قديمها الراسخ، ويسهم في تطويرها الى الجديد المشرق . ولا يغفل ـ مع ذلك ـ الطبقة التي اعيت عنقه في محاولته النظر اليها .. فيسخر من جمودها المشبع بالضلال .. اذ لا تدري من التاريخ الا اسماء بطولاته ، اما نواميس تطوره، فتجهلها تمام الجهل .

وتبلغ السخرية الرائعة مداها ، حين يرسم الفنان ـ بعدة لمسات بارعة ـ صورة حية لحياة هذه الطبقة ، التي ينسق على احذيتها رضوان . فهو يتردد على باشا من رجال الاحزاب يسكن ضاحية حلوان . وهذا الباشا صورة غريبة لرجال من طرازه بين رجال السياسة ومحترفيها ومستوزريها في زمنه . فنحن قرب نهاية الثلاثية نراه مزمعا السفر الى مكه للحج ، ونسمعه يقول لرضوان ، ولاحد أصدقائه في خيلاء وسرور (السكرية ص ٢٨٦) : « انتم أنس . ما الحياة بدون المودة والصداقة ؟ الحياة جميلة . الجمال جميل . الطرب جميل . العفو جميل . أنتم شباب وتنظرون الى الدنيا من زاوية خاصة ، وسوف يعلمكم العمر الكثير ، التي احبكم ، واحب الدنيا ، وان زيارتي لبيت الله للشكر والاعتذار وطلب الهداية.

فقال رضوان باسما :

ما أجملك ، وما اجمل منظرك ، وانت تقطر صفاء !

فقال علي مهران :

ـ ولكن حركة صغيرة تجعله يقطر أشياء اخرى . حقا يا باشا انك معلم الجيل !

وعلق الرجل :

ـ وانت ابليس نفسه يا ابن الهرمه ! اللهم اذا قدمت يوما للحساب ، فسأشير اليك وكفى ! »

فهذا الباشا ، لا يعرف في حياته سوى التفاؤل . وكذلك رضوان

صدر عن دار المكشوف

الروم

في جزئين

في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب

للدكتور اسد رستم

الذي يتخذه قدوته .. ولا يبالي بكثير من الاعتبارات في سبيل الوصول.

ويستخدم الفنان نفس المنظار العلمي ، في رؤية الطبقة الجادة في نموها الانساني. وينتهز اغرب فرصة للتصادم بين هذه الطبقة ، والطبقة المتوسطة الصغيرة ، حين ترفض زواج احمد من سوسن ابنة عامل المطبعة .. وتنتصر العدسة الانسانية في النهاية ، حين يتزوج احمد حبيبته .

ونجيب محفوظ في تتبعه الخط المتقدم للانسان.. لا يهمل التفاصيل الصغيرة ، التي قد تثار بين متناقضات هذا الخيط الواحد . فرياض ، شاب قبطي حر ، تمثل في اعماقه التيار العلمي للثقافة الحديثة .. ومع ذلك فهو يحس الما حادا لاضطهاد الاقباط في عهد صدقي. ويناقش صديقه كمال في هذا الموضوع ، فيجيبه :

ـ ها أنت تتحدث عن الاقباط ! انت الذي لا تؤمن الا بالعلم والفن .

فقال رياض :

ـ اني حر وقبطي في آن ، بل اني لا ديني وقبطي معا . أشعر في أحيان كثيرة بان المسيحية وطني لا ديني ، وربما اذا عرضت هذا الشعور على عقلي اضطربت . ولكن مهلا ، أليس من الجبن ان انسى قومي ؟ شيء واحد خليق بان ينسينيهذا التنازع ، الا وهو الغناء في القومية المصرية الخالصة كما أرادها سعد زغلول .

كان كمال يتمطق ويفكر وصدره يجيش بالعواطف . كانت سحنة رياض المصرية الصحيحة تذكره بالصورة الفرعونية ، وتأملات شتى في نفسه:

ـ ان موقف رياض له وجاهته التي لا تجحد . وانا نفسي بين عقلي وقلبي شخص يعاني انقسام الشخصية . فكذلك هو . كيف يتأتى لاقلية ان تعيش وسط اغلبية تضطهدها ؟ وجدارة الرسالة السامية تقاس عادة بما تحققه من سعادة للبشر تتمثل اول ما تتمثل في الاخذ بيد المضطهدين

وقال لرياض بصوت مسموع :

ـ لا تؤاخذني . فقد عشت حتى الان دون ان اصطدم بمشكلة العنصرية . فمنذ البدء لقنتني امي ان احب الجميع . ثم شببت في جو الثورة المطهر من شوائب التعصب ، فلم اعرف هذه المشكلة .

ـ نلرجو الا تكون ثمة مشكلة على الاطلاق . يؤسفني ان اصارحك باننا نشاتا في بيوت لا تخلو من ذكريات سود محزنة . لست متعصبا . ولكن من يستهين بحق انسان في اقصى الارض ـ لا في بيته ـ فقد استهان بحقوق الانسانية جميعا (السكرية ص ١٣٩)

يقول جوميبه (ص ٦) لا يغفل المؤلف ازمات الضمير المروعة التي كانت تثيرها احيانا احتكاكات بعض المصريين ببعض وجوه التفكير الاوروبي ، من نزعة علمية في مبدأ الامر ، ثم النزعة الماركسية بعد ذلك » .

واطلاق هذا القول هكذا دون اي ضابط او تحديد ، يتيح فرصا كثيرة للتأويل غير العلمي . بل ربما جاءت هذه العبارة نتيجة عدم الايضاح الدقيق ، لتلقي الاحداث الفكرية في الرواية .

ويثبت ذلك ما جاء على لسان الكاتب (ص ١١٣) من ان هذا هو السبب في ان القراء على اختلاف آرائهم ومذاهبهم لا يجدون ما يصدمهم عندما يقرأون الثلاثية « فآراء اي شخصية تؤول على أنها آراء خاصة بتلك الشخصية ، ولا يقدمها لنا المؤلف ، باعتبارها مثلا أعلى يقتدى »

ويبدو هنا الخلط واضحا ، اذ ينفي جوميبه ، الدور الكبير الذي قام به المؤلف من خلف الستار . ولذا فنحن نختلف مع الكاتب اختلافا تاما ، ولا نبرز دليلا جديدا ، على الدور الباهر الذي اداه الفنان ، غير الادلة التي ذكرناها من كلام الكاتب نفسه .

*

الكلمات ، التي بدأ بها الاب جاك جوميبه دراسته لشخوص الثلاثية، هي التي أريد ان اختتم بها هذا البحث . قال جوميبه « .. ونعتقد ان الدراسات الفلسفية التي بدأ بها شبابه اتاحت له صدق الحس في التحليل النفسي ، فادرك الصلات العميقة بين مواقف قد يراها غيره اشتاتا متفرقة لا يجمعها رباط . نعتقد كذلك ان تعليمه الجامعي اتاح له القدرة على تذوق الاداب الاجنبية ، فأخذ منها فنية الرواية . بيد انه هضم تلك الفنية وسيطر عليها وسخرها لاغراضه ، فخرج عمله الكبير مصريا خالص المصرية » .

*

شيء ما في ترجمات نظمي لوقا ، كان يلفت نظري . هو هذه الدقة الامينة ، التي تنقل الينا الكتاب الاجنبي في ثوبه العربي الانيق .

وشيء جديد في ترجمة نظمي لوقا ، لفت نظري في نقله هذه الدراسه الى العربية ... فقد شممت رائحة عرقه في الثوب العربي الذي البسه لجوميبه ، وهو يقدمه لنا . واحسست ان هذه الدراسة بما رافقها من كلمات غنية لنظمي لوقا .. ما هي الا مقدمة قصيرة لدراسة جديدة طويلة.

قال نجيب محفوظ في بدء هذا المقال ، انه يريد للناقد عقل فيلسوف، وضمير قاض ، وقلب انسان .

ولقد اكتفى جاك جوميبه ، بقلب انسان . واراني مضطرا ان انحنى لهذا الرجل .. مرة ثالثة .. .

القاهرة — غالي شكري